حياة الشافعي

مولده ونسبه

أكثر الرواة على أن الشافعي قد ولد بغزة بالشام ، وعلى ذلك اتفق رأى الجماهرة الكبرى من مؤرخي الفقهاء ، وكاتبى طبقاتهم ، ولكن وجد بجوار هذه الرواية التي اعتنقها هذه الكثرة من يقول (١) : إنه ولد بعسقلان وهي على بعد ثلاثة فراسخ من غزة ، بل وجد من يتجاوز الشام إلى اليمن ، فيزعم أنه ولد باليمن ولكن الكثرة قد علمت ما رجحت ولقد حاول بعضهم الجمع بين هذه الروايات ، فذكر أن معنى رواية ولادته أنه ولد باليمن ونشأ بعسقلان وغزه ، وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها ، وقال في ذلك ياقوت : وهذا عندي تأويل حسن إن صحّت الرواية .

وقد اتفقت الروايات على أنه ولد سنة ١٥٠ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة ، ولقد زاد بعضهم فقال إنه ولد في الليلة التي توفي فيها أبو حنيفة ، وما كانت هذه الزيادة إلا ليقول الناس مات إمام ، فجاء في ليلة موته إمام آخر ، وما لذلك فضل جداء .

والرواية التي تعتنقها للكثرة العظمى من مؤرخي الفقهاء بالنسبة لنسبه أنه ولد من أب قرشي مطلبى ، وتقول تلك الكثرة في سلسلة نسبه أنه محمد ابن إدريس بن العباس ، بن عثمان ، بن شافع ، بن السائب ، بن عبيد ، بن عبد يزيد ، ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . فهو يلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف .

والمطلب الذى ينتهى الشافعي أحد أولاد عبد مناف الأربعة ، وهم المطلب ، وهاشم ، وعبد شمس جد الأمويين ، ونوفل جد جبير بن مطعم ، والمطلب هذا هو الذى ربه عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد رسول الله

(١) الروايات الثلاث رويت على لسان الشافعي روى أنه قال : (ولدت بغزة سنة خمسين ومائة وحملت الى مكة وأنا ابن سنتين ، وروى أنه قال : ولدت بعسقلان) ، ويقول ياقوت عسقلان من غزة على ثلاث فراسخ . وكلاهما من فلسطين ، وروى أنه قال : ولدت في اليمن فخافت أمي على الضيعة فحملتني الى مكة) .

صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان بنو المطلب وبنو هاشم حزباً واحداً ، يقاومه بنو عبد شمس في الجاهلية ، وكان لذلك أثره في الإسلام في أمرين :

أحدهما : أن قریشاً لما قاطعوا النبي صلى الله عليه وسلم ومن يناصره من أهل بيته انضم إلى نصرته بنو المطلب ، مسلمهم وكافرهم في ذلك سواء ، وقبلوا الأذى معه عليه السلام .

ثانيهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لهم في سهم ذوى القربى المنصوص عليه في قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل » ، ولم يجعل ذلك لبني عبد شمس وبني نوفل .

روى جبير بن مطعم أنه قال : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى من جبير على بني هاشم وبني المطلب ، ومشيت أنا وعثمان ابن عفان ، فقلت يا رسول الله : هؤلاء إخوتك من بني هاشم لا ينكر فضلهم ، لأن الله تعالى جعلك منهم ، إلا أنك أعطيت بني عبد المطلب ، وتركتنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال صلى الله عليه وسلم (إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى يديه في الأخرى) (١) .

هذا ما يعتنقه الجمهور بالنسبة لنسبه ، ولكن بعض المتعصبين ضده من المالكية والحنفية في الوقت الذي ساد فيه التعصب للمذاهب إلى درجة التنافر بين مقلديها - زعموا أن الشافعي لم يكن قرشياً بالنسب ، بل كان قرشياً بالولاء ، لأن شافعاً جده كان مولى لأبي لهب ، ولم يلحقه عمر بموالى قریش ، ثم ألحقه عثمان من بعد عمر بهم ، وهذا الزعم باطل ، وهو يخالف المشهور الذي ذكره الشافعي عن نسبه ولم يكذبه فيه أحد من مخالفيه في عصره ، وإن الثقات من الرواة قد نقلوه وتناقلته كتب الأخبار واستفاض ،

(١) من أجل ذلك طلب الشافعي أن يجعل له نصيب في سهم ذوى القربى فأجيب طلبه .

وعلى من زعم خلاف المشهور المستفيض أن يأتي بحجة أو سند صحيح يثبت دعواه ، وليس لهؤلاء حجة (١) .

١٠ - وأما أمه فهى من الأزد ، وليست قرشية ، ولكن زعم بعض المتعصبين للشافعى أنها قرشية علوية ، ولكن الصحيح أنها أزدية ، وذكر الفخر الرازى أن رواية أنها قرشية شاذة تخالف الإجماع ، ولقد قال فى هذا المقام : « وأما نسب الشافعى من جهة أمه ففيه قولان : الأول وهو شاذ رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ ، وهو أن أم الشافعى رضى الله تعالى عنه هى فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . والثانى المشهور أنها من الأزد » .

وكل الروايات التى رويت عن الشافعى فى نسبه تذكر على لسانه أن أمه من الأزد وانعقد على ذلك الإجماع ، وفى نسب الشافعى بأبيه غناء يغنيه عن ادعاء القرشية لأمه بغير حق .

١١ - تبين من هذا السياق الذى سقناه أن الشافعى كان قرشياً ، وقد نشأ من أسرة فقيرة كانت مشردة بفلسطين ، وكانت مقيمة بالأحياء البنية منها ، ولقد روى عن الشافعى عدة روايات تدل على أن أباه مات صغيراً ، وأن أمه انتقلت به إلى مكة ، خشية أن يضيع نسبه الشريف ، فلقد جاء فى معجم

(١) قد ورد فى الفخر الرازى قول المتعصبين من المالكية والحنفية من ثلاثة وجوه (أولها) أن المخالفين له من المالكية والحنفية وغيرهم فى عصره كانوا يجادلونه ، ومنهم من كان يحسده وينال منه ، فلو كان غير قرشى لطنخوا فى نسبه ، ولو طعنوا لاشتهر ذلك عنهم ، ولم ينتقل من مجادليه شيء من ذلك (ثانيها) أن الشافعى ادعى ذلك النسب فى حضرة الرشيد عند اتهامه مع العلوية الذين خرجوا على الرشيد ، فلو كان من الموالى ما ادعى انه ابن عم الخليفة ، وقد جرى مكبلاً خائفاً يترقب ، ولو لم يكن النسب مما يظهر كالشمس ما ادعاه عاقل كالشافعى فى مثل هذا المقام (ثالثها) أن أكابر العلماء شهدوا بهذا النسب : قال محمد بن اسماعيل البخارى فى التاريخ الكبير عند ذكر الشافعى (محمد ابن ادريس الشافعى القرشى) وقال مسلم بن حجاج . وعبدالله ابن السائب والى مكة ، وهو أخو الشافعى بن السائب جد ابن ادريس) ، ولا نزاع فى أن عبد الله بن السائب قرشى أ ه . ملخصاً من مناقب الشافعى

ص ٨٧ .

يا قوت في إحدى الروايات عن الشافعي أنه قال : ولدت بغزة سنة خمسين ومائة ، وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين ، وروى عنه أنه وصل إلى مكة وهو في العاشرة ، فلقد قال الخطيب في تاريخ بغداد بسند متصل إلى الشافعي أنه قال : ولدت باليمن فخافت أمي على الضيعة ، وقالت ألحق بأهلك فتكون مثلهم ، فإني أخاف أن تغلب على نسبي ، فجهزني إلى مكة فقدمتها وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه بذلك ، فسرت إلى نسيب لي وجعلت أطلب العلم . ولا شك أن بين الروايتين تعارضاً في الظاهر ، وقد يمكن الجمع بينهما بأنها كانت تتردد بين مكة وأحياء قومها اليمن بفلسطين ، وأن الانتقال الأول كان ، وهو ابن سنتين لتعرف أهله به ، وتنسبه إليهم ، وأن انتقاله ، وهو ابن عشر ليقم بين ذويه يتثقف بثقافتهم ، ويعيش بينهم ويكون منهم .

والأخبار تنفق بعد ذلك على أنه عاش عيشة اليتامى الفقراء ، فالشافعي إذن قد ولد ذا نسب رفيع شريف ، هو أشرف الأنساب في زمانه ، ولا يزال أشرف الأنساب على مر الدهور ، ولكنه عاش عيشة الفقراء إلى أن استقام عوده ، والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم ، ومسلك كريم ، إن انتفت الموانع ، ولم يكن ثمة شذوذ ، ذلك بأن علو النسب وشرفه يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالي الأمور ، ويتجافى عن سفاسفها ويرتفع عن الدنيا ، فلا الفقر منه بذل ، ولا يتطامن عن ضعة ، ولا يرضى بالدنية ، ويسعى إلى المجد بهمة وجلد ، ليرفع خسيصة الفقر ، وذل الحاجة ، ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح بنسبه ، يجعله يحس بإحساس الناس ، ويندمج في أوساطهم ، ويتعرف خبيثة نفوسهم ، ودخائل مجتمعهم ، ويستشعر بمشاعرهم ، وذلك أمر ضروري لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالجمتمع ، وما يتصل به في معاملاته وتنظيم أحواله ، وتوثيق علاقته ، وإن تفسير الشريعة ، واستخراج حقائقها ، والكشف عن موازينها ومقاييسها ، يتقاضى الباحث ذلك .

يروى أن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان يذهب إلى الصباغين ،
(م ٢ - الشافعي)

ويسأل عن معاملتهم ، وما يدبرونه فيما بينهم ، وما كان يفعل ذلك إلا ليكون حكمه في مسألة تتعلق بشئون الناس ، وتتصل بعاداتهم أقرب إلى تلك العادات ، ما لم تخالف أصلاً من أصول الشرع وأحكامه ، فهذه النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تهباً بها للشافعي تهذيب كامل ، لا يتسامى في معاملاته عن العامة فيبعد عنهم ، ولا يهوى في مبادئهم فيصغر في نظرهم ، فكان لنسبه عزته ، ولفقره طبيته ، وكان لجماعتهما أثره عندما فكه في مجبوحة العيش ، يهدى إليه الوزير الهدية ، فيرفضها لأنها ممن دونه ، ويعطيه الخليفة العطية فيوزعها قبل أن يغادر الطريق ، أو يبقيا فيفرقها على الفقراء ممن لهم بهرحم .

١٢ - نشأ الشافعي في بيت فقير ، وكان يتيا ، كما بينا ، وقد حرصت أمه على وصله بأنسابه خشية الضيعة كما علمت . والذي يستخلص من مجموع الروايات التي تبين تربيته الأولى وما ظهر منه من ذكاء وألمعية ، أن الشافعي حفظ القرآن الكريم وبدا ذكاؤه الشديد في سرعة حفظه له ، ثم اتجه بعد حفظه القرآن الكريم إلى استحفاظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حريصاً عليها ، ويستمع إلى المحدثين ، فيحفظ الحديث بالسمع ، ثم يكتبه على الخزف أحيانا ، وعلى الجلود أخرى ، وكان يذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها (١) ، وبهذا تدل كل الروايات على أنه أغرم بالعلم ، وحبب إليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره .

ولقد كان مع استحفاظه لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وحفظه لكتاب الله تعالى ، قد اتجه إلى التفصح في العربية ، ليبعد كل البعد عن العجمة وعدواها التي أخذت تغزو اللسان العربي بسبب الاختلاط بالأعاجم في المدائن والأمصار ، وقد خرج في سبيل هذا إلى البادية ولزم هزيلا ، وهو يقول في هذا المقام : إني خرجت عن مكة فلازمت هزيلا بالبادية ، أتعلم كلامها ، وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، أرحل برحيلهم ،

(١) قد جاء في ذلك عدة روايات على لسان الشافعي ، ونقل ذلك الفخر الرازي في مناقب الشافعي ، ومعظم الأدباء عن الآبري ، وغيرها . والمعنى فيها واحد ، والظهور المراد بها الأوراق الديوانية التي كتب في باطنها وترك ظهرها أبيض .

وأُنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار ، ولقد بلغ من حفظه لأشعار المهديين وأخبارهم أن الأصمعي ، ومكانته من اللغة مكانته ، قال : صححت أشعار هذيل على فتي من قريش يقال له محمد بن إدريس .

ويظهر أن مقامه في البادية أمدأ طويلاً ، وهو عشر سنين كما ذكر ابن كثير في إحدى الروايات ، جعله يتخير من عادات أهل البادية ما يراه حسناً ، فقد تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها ، حتى كان يرمى من السهام عشراً تصيب كلها . فقد جاء على لسانه قوله : وكانت همتي في شيئين : في الرمي ، والعلم ، فصرت في الرمي بحيث أصيب من عشرة عشره ، ثم سكت عن العلم ، فقال بعض الحاضرين : أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي . هذه تربية الشافعي الأولى ، وهي أمثل تربية عربية في ذلك الإبان ، حفظ للقرآن ، وطلب للحديث ، وتوضح بالفصحى ، وتربية على الفروسية ، وتعرف لأحوال الحواضر والبوادي .

١٣ - طلبه العلم : طلب الشافعي العلم بمكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين فيها ، وبلغ شأواً عظيماً ، حتى لقد أذن له بالفتيا مسلم ابن خالد الزنجي وقال له : افت يا أبا عبد الله ، فقد آن لك أن تفتي . وكان يصح أن يقف الشافعي عند هذا القدر ، وقد بلغ منزلة الإفتاء ، ولكن همته في طلب العلم لا تقف به عند حد ، لأن العلم ليس له حدود وأقطار ، فقد وصل إليه خبر إمام المدينة مالك رضى الله عنه ، وكان ذلك في وقت انتشر اسم مالك في الآفاق وتناقلته الركبان ، وبلغ شأواً من العلم والحديث بعيداً ، فسمت همة الشافعي إلى الهجرة إلى يثرب في طلب العلم ، ولكنه لم يرد أن يذهب إلى المدينة خالي الوفاض من علم مالك رضى الله عنه ، فقد استعار الموطأ من رجل بمكة ، وقرأه ، والروايات تقول إنه حفظه ، ولعل حفظه الموطأ ، وقرأته ، كانت مضاعفة لباعث الذهاب لإمام دار الهجرة ، فقد استطاع أن يستأنس منه بفقهِ مالك رضى الله عنه مع ما رواه من أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ذهب الشافعي إلى مالك يحمل معه كتاب توصية من وإلى مكة (١) ،
وبهذه الهجرة أخذت حياة الشافعي تتجه إلى الفقه بجملتها ، ولما رآه مالك
وكانت له فراسة قال له : يا محمد اتق الله ، واجتنب المعاصي ، فإنه سيكون
لك شأن من الشأن ، إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه
بالمعصية . ثم قال له : إذا ما جاء الغد تجيء ويجيء ما يقرأ لك ، ويقول
الشافعي : فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأ ظاهراً ، والكتاب في يدي ،
فكلما تهيبت مالكا ، وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي ،
فيقول : يا فتى زد ، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة .

وبعد أن روى الشافعي عن مالك موطأه لزمه يتفقه عليه ، ويدارسه
المسائل يفقّي فيها الإمام الجليل إلى أن مات سنة ١٧٩ وقد بلغ الشافعي

(١) جاء في معجم ياقوت عن الأبري ، وجاء في مناقب الشافعي للرازي ،
كلام للشافعي عن رحلته إلى مالك ولقائه به ننقلها لك لأنها تكشف عن مكان
رجال العلم في هذا الزمان ، قال : (دخلت إلى وإلى مكة) وأخذت كتابه إلى
وإلى المدينة ، وإلى مالك بن أنس . فقدمت المدينة ، فأبلغت الكتاب إلى الموالي
فلما قرأه قال : يا فتى إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا
أهون على من المشى إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل ، حتى أنف على
بابه ، فقلت أصلح الله الأمير ، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر فقال : هيهات .
ليت انى إذا ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .
فواعدته العصر ، وركبنا جميعا ، فوالله لكان كما قلنا : لقد أصابنا من تراب
العقيق فتقدم رجل ففرع الباب فخرجت الينا جارية سوداء ، فقال لها الأمير :
قولى لمولاي انى بالباب ، فدخلت فأبظأت ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك
السلام ، ويقول : إن كانت لديك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ،
وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولى له ان معى
كتاب وإلى مكة اليه فى حاجة مهمة ، فدخلت وخرجت وفى يديها كرسى ، فوضعت
ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار ، وهو شيخ طويل مسنون
اللحية ، فجلس ، وهو متطلس فرفع اليه الوالى الكتاب ، فبلغ إلى هذا : (ان
هذا رجل من أمره وحاله ، فتحدثه ، وتفعل وتصنع) ، فرمى بالكتاب من يده ،
ثم قال : سبحان الله ، أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ
بالوسائل ، فرأيت الوالى قد تهيبه أن يكلمه ، فتقدمت اليه وقلت : أصلحك الله
انى رجل مطلبى ومن حالى وقصتى . فلما سمع كلامى نظر إلى ساعته ، وكان
لمالك فراسة فقال ما اسمك ؟ قلت محمد ، فقال لى : يا محمد اتق الله ، واجتنب
المعاصي ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن) .

شرح الشباب ، ويظهر أنه مع ملازمته لمالك كان يتحين الوقت بعد الآخر ، فيقوم برحلات في البلاد الإسلامية يستفيد فيها ما يستفيده المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وأخبارهم ، وشئون اجتماعهم ، وكان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها وكان فيها نبل وأدب وحسن فهم ، فلم تكن ملازمته لمالك رضى الله عنه بممانعة من سفره واختباراته الشخصية .

١٤ - ولايته : ولما مات مالك رضى الله عنه ، وأحس الشافعى أنه نال من العلم أشطراً . وكان إلى ذلك الوقت فقيراً ، اتجهت نفسه إلى عمل يكتسب منه ما يدفع حاجته ، ويمنع خصاصته ، وصادف في ذلك الوقت أن قدم إلى الحجاز وإلى اليمن ، فكلمه بعض القرشيين في أن يصحبه الشافعى ، فأخذه ذلك الوالى معه ، ويقول الشافعى في ذلك : ولم يكن عند أمى ما تعطينى ما أتحمّل به ، فرهنت داراً ، فتحملت معه ، فلما قدمنا عملت له على عمل .

وفى هذا العمل تبدو مواهب الشافعى ، واختباراته وذكائه وعلمه ونبله ، ونسبه ، فيشيع ذكره عادلاً ممتازاً ، ويتحدث الناس باسمه في بطاح مكة ، ويبلغ الفقهاء والمحدثين الذين أتى عنهم أو التقي بهم ذكره ، فيختلفون ، ومنهم من يلومه على دخوله في العمل ، وينصح له بتركه .

تولى عملاً بنجران فأقام العدل ونشر لواءه ، وكان الناس في نجران كما هم في كل عصر ، وفى كل بلد ، يصانعون الولاة والقضاة ويتملقونهم ، ليجدوا عندهم سبيلاً إلى نفوسهم ، ولكنهم وجدوا في الشافعى عدلاً لا سبيل إلى الاستيلاء على نفسه بالمصانعة والملق ، ويقول هو في ذلك : وليت نجران وبها بنو الحارث ابن عبد المدان ، وموالى ثقيف ، وكان الوالى إذا أتاهم صانعوه فأرادونى على نحو ذلك فلم يجدوا عندى .

مد الشافعى إذن باب المصانعة والملق لكيلا يصل إلى نفسه أحد وهو

الباب الذى يلج منه صغار النفوس إلى كبراء النفوس ، ليحولوا نفوسهم عن مجرى العدل والحق ، فالشافعى إذ غلقه قد حصن لنفسه من كل شر وظلم ، لأن كبار النفوس لا يتالون إلا بالمصانعة وتملق المتملقين لهم ، ولذا صار كله للعدل . ولكن العدل دائماً مركب صعب لا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال ، وهم يتعرضون لخشونة الزمان وأذاه ، وكذلك كان الشافعى .

١٥ - محنته : لقد نزل باليمن ، ومن أعمالها نجران ، وبها آل غشوم ظلوم ، فكان الشافعى يأخذ على يديه ، ويمنع مظلماً أن تصل إلى من تحت ولايته ، وربما نال الشافعى ذلك الوالى بما يملكه العلماء من سيف يحسنون استعماله ، ويكثر من إرهابه ، وهو النقد ، فلعله كان مع الأخذ على يديه يناله بنقده ، ويسلقه بلسانه ، فأخذ ذلك الوالى يكيد له ، بالدس والسعاية والوشاية ، وكل ميسر لما خلق له .

كان العباسيون يعدون خصومهم الأقرباء العلويين ، لأنهم يدلون بمثل نسبهم ، ولهم من رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس لهم ، فإذا كانت دولة العباسيين قامت على النسب ، فأولئك يمتون بمثله ، وبرحم أقرب ، ولذا كانوا إذا رأوا دعوة علوية قضاها عليها ، وهى فى مهدها ، ويقتلون فى ذلك على الشبهة لا على الجزم واليقين ، إذ يرون أن قتل برىء يستقيم به الأمر لهم ، أولى من ترك متهم يجوز أن يفسد الأمن عليهم .

جاءهم الوالى الظالم من هذه الناحية الضعيفة فى نفوسهم ، وآتهم الشافعى بأنه مع العلوية ، فأرسل إليه الرشيد : إن تسعة من العلوية تحركوا ، ثم قال فى كتابه : إنى أخاف أن يخرجوا ، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطبى لا أمر لى معه ولا نهى ، وفى بعض الروايات أنه قال فى الشافعى : يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه ، فأرسل الرشيد أن يحضر

أولئك النفس التسعة من العلوية ومعهم الشافعي (١) .

ويقول الرواة أنه قتل التسعة ، ونجا الشافعي بقوة حجته ، وشهادة محمد بن الحسن ، أما قوة حجته فكانت بقوله للرشيد ، وقد وجه إليه التهمة بين النطع والسيف : يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين أحدهما يرانى أخاه ، والآخر يرانى عبده ، أيها أحب إلى ؟ قال الذي يراه أخاه ؟ قال فذاك أنت يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس ، وهم ولد علي ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم .

وأما شهادة محمد بن الحسن ، فذلك لأن الشافعي استأنس لما رآه في مجلس الرشيد عند الاتهام ، إذ أن العلم رحم بين أهله . فذكر بعد أن ساق ما ساق أن له حظاً من العلم والفقہ ، وأن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك ، فسأل الرشيد محمداً ، فقال : له من العلم حظ كبير ، وليس الذي رفع عليه من شأنه ، قال : فخذة إليك ، حتى أنظر في أمره ، وبهذا نجا .

(١) نريد هنا أن نشير الى أمرين : (أحدهما) أن الشافعي اشتهر بحبه لأولاد علي رضي الله عنه ، كما سنبين ذلك في موضعه من كلامنا ، حتى لقد روى عنه كما جاء في الانتقاء لابن عبد البر وغيره أنه قال :

ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

(ثانيهما) أن الرواة قد اتفقوا على أن الشافعي قد اتهم بالعلوية ، وأن الرشيد قد أنزل به المحنة بسبب ذلك وأحضره اليه ، ولكن اختلفوا أكان اتهامه بهذه التهمة وهو بمكة أم كان وهو باليمن ، ففي توالي التأسيس لابن حجر ، ومناقب الشافعي للرازي ، وما نقله معجم الأدباء عن الأبري أن التهمة كانت وهو باليمن ، وأنه أخذ من اليمن الى الرشيد ، ولكن في الانتقاء لابن عبد البر أن التهمة كانت وهو بمكة ، فقد جاء فيه على لسان الشافعي : رفع الى هرون الرشيد أن بمكة قوما من قريش استدعوا رجلا علويا كان باليمن ، ثم قدم مكة مجاورا . فاجتمع اليه من قريش فتية جماعة يريدون أن يبایعوه ويقوموا ، فأمر الرشيد يحيى بن خالد بن برمك أن يكتب الى عامله بمكة أن يبعث اليه من مكة ثلاثمائة رجل كلهم من قريش مغلولة أيديهم الى أعناقهم فأشخصت فيمن أشخصوا) . ثم يقول في رواية أخرى : (حمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة . وهو العاشر) .

هذه بلا ريب روايات متناقضة في ظاهرها ، وقد يصح الجمع بينها بأن الشافعي اتهم وهو بمكة يزور أهله ، وأن المتهم هو والى سعاية له ونمام عليه ، وأما الاختلاف في العدد لعله لأن التهمة موجّهة الى العشرة والآخرين قد استمعوا اليهم .

١٦ - كان قدوم الشافعي بغداد في هذه المحنة سنة ١٨٤ ، أى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، ولعل هذه المحنة التي نزلت به ساقها الله إليه ليتجه إلى العلم لا إلى الولاية وتدبير شئون السلطان ، فإنها قد وجهته إلى العلم يدرسه ويدارسه ويذاكره ، ويخرج للناس الأثر الخالد من الفقه والتخريج ، ذلك بأنه نزل عند محمد بن الحسن ، وكان من قبل يسمع باسمه وفقهه ، وأنه حامل فقه العراقيين وناشره ، بل لعله التقي به من قبل .

أخذ الشافعي يدرس فقه العراقيين ، فقرأ كتب الإمام محمد وتلقاها عليه وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق ، اجتمع له الفقه الذى يغلب عليه النقل ، والفقه الذى يغلب عليه العقل وتخرج بذلك على فحول الفقه فى زمانه . ولقد قال فى ذلك ابن حجر : انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه . وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبى حنيفة ، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملاً ، ليس فيه شىء إلا وقد سمعه عليه ، فاجتمع علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث ، فتصرف فى ذلك حتى أصل الأصول ، وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره ، وعلا ذكره ، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار .

أخذ الشافعي من علم محمد بن الحسن وكتبه ونقل عنه ، وقيد ما نقل ، حتى لقد قال : حملت عن محمد بن الحسن وقر بعير ليس عليه إلا سماعى منه ، وكان يجمل محمد بن الحسن ويكبره ، ويرى فيه أستاذه ، ويثني عليه وعلى علمه وأناته ، حتى لقد قال فيه : ما رأيت أحداً سئل عن مسألة فيها نظر ، إلا رأيت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن ، وروى عنه الحديث ولم يقتصر على تلقى الرأى عنه ، ففى الأم : أنبأنا محمد ابن الحسن عن يعقوب بن إبراهيم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الولاء لحمة كلحمه النسب لا يباع ولا يوهب » .

وكان محمد يعطيه من كرم المنزلة ما هو له أهل ، حتى كان يفضل مجلسه

على مجلس السلطان . يروى أن محمداً خرج راكباً إلى دار الأمانة فرأى الشافعي قد جاء فثنى رجله ونزل ، وقال لغلامه : اذهب فاعتذر ، فقال له الشافعي : لنا وقت غير هذا ، قال : لا ، وأخذ بيده فدخل الدار .

كان الشافعي يلزم حلقة محمد بن الحسن ، ولكنه مع ذلك يعتبر نفسه من صحابة مالك ، ومن فقهاء مذهبه ، وحمله موطنه ، يحامى عليه ويذبح عنه ويدافع عن فقه أهل المدينة ، ولذلك كان إذا قام محمد من مجلسه ناظر أصحابه ، ودافع عن فقه الحجازيين وطريقتهم ، ولعله كان لا يناظر محمداً نفسه إعظاماً لمكان الأستاذ ، ولكن محمداً بلغه أنه يناظر أصحابه ، فطلب إليه أن يناظره ، فاستحيا وامتنع ، وأصر محمد ، فناظره مستكراً في مسألة كثر استنكار أهل العراق فيها لرأى أهل الحجاز ، وهي مسألة الشاهد واليمين (١) فناقش الشافعي محمداً فيها ، ويقول الرواة من الشافعية أن الفلح كان للشافعي .

أقام الشافعي في بغداد تلميذاً لابن الحسن ، ومناظراً له ولأصحابه على أنه فقيه مدني من أصحاب مالك . ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة ، ومعه من كتب العراقيين حمل بعير . كما نقلنا عنه فيما أسلفنا من القول . ولم يذكر أكثر الرواة مدة إقامته في بغداد في هذه المقدمة ، ولا بد أنه أقام مدة معقولة تكفي للتخرج على أهل الرأي ومدارسهم ، ولعلها كانت نحو سنتين .

١٧ - عاد الشافعي إلى مكة ، وأخذ يلقى دروسه في الحرم المكي ، والتقى به أكبر العلماء في موسم الحج ، واستمعوا إليه ، وفي هذا الأبان .

(١) الخلاف في مسألة الشاهد واليمين خلاف مشهور بين الحنفية والشافعية والمالكية ، وأساسها أن الحنفية يرون أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، وعلى ذلك لا يمين على المدعي ، فان كان معه بينة مقبولة قضى بها وألا يحلف المدعي عليه ، فان حلف قضى له قضاء ترك ، وان نكل قضى للمدعي ، ولا يمين على المدعي في أية حال . وقال المالكية والشافعية اذا لم يكن مع المدعي الا شاهد واحد قضى له اذا حلف ويكون حلفه في مقام الشاهد الثاني . وذلك يجوز في الأموال فقط ، وأما غير الأموال فلا توجه فيها اليمين للمدعي اقتصاراً على مورد النص ، وقد ذكرت المناظرة في الأم ، الجزء السابع .

التي به أحمد بن حنبل ، وقد أخذت شخصية الشافعي تظهر بفقته جديد ، لا هو فقه أهل المدينة وحدهم ، ولا فقه أهل العراق وحدهم ، بل هو مزيج منهما وخلاصة عقل ألمعي أنضجته علم الكتاب والسنة ، وعلم العربية وأخبار الناس والقياس والرأى ، ولذلك كان من يلتقى من العلماء يرى فيه عالماً هو نسيج وحده (١) .

أقام الشافعي بمكة في هذه القدمة نحواً من تسع سنوات ، كما يستنبط من أخبار الرواة ، ولا بد أن الشافعي بعد أن رأى نوعين من الفقه مختلفين ، وبعد أن ناظر وجادل ، ورأى تشعب الآراء ، واختلاف الأنظار ، وتباين المشارب ، وجد أنه لا بد من وضع مقاييس لمعرفة الحق من الباطل ، أو على الأقل لمعرفة ما هو أقرب للحق فإنه ليس من المعقول بعد أن شاهد وعان ما بين نظر الحجازيين والعراقيين من اختلاف ، ولأصحاب النظرين مكان من احترامه وتقديره ، أن يحكم الشافعي ببطان أحد النظرين جملة من غير ميزان ضابط دقيق ، لهذا فكر في استخراج قواعد الاستنباط ، ويصح لنا أن نفهم من مقامه الطويل في مكة بعيداً عن ضجة العراق ، وتناحر الآراء فيه ، أنه فعل ذلك ليتوافر له الانصراف الكافي ، والتأمل المبصر لاستخراج هذه القواعد ، فتوافر على الكتاب يعرف طرق دلالاته ، وعلى الأحكام يعرف ناسخها ومنسوخها ، وخصائص كل منهما ، وعلى السنة

(١) جاء في معجم ياقوت عن الآبري ما نصه : (قال اسحق بن راهويه : كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار ، فجاءني أحمد بن حنبل فقال لي : قم يا أبا يعقوب حتى أريك رجلاً لم تر عينك مثله ، فقممت فأتى بي فناء زمزم ، فاذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السمرة حسن السميت ، حسن العقل ، وأجلسني الى جانبه فقال له يا أبا عبد الله هذا اسحاق بن راهوية الحنظلي ، فرحب بي وحياني . فذاكرته وذاكرني فانفجر لي منه علم أعجبني حفظه ، فلما طال مجلسنا قلت يا أبا عبد الله قم بنا الى الرجل ، قال هذا هو الرجل ، فقلت يا سبحان الله ، أقمت من عند رجل يقول حدثنا الزهري ، فما توهمت الا أن تأتينا برجل مثل الزهري أو قريب منه فأتيت بنا الى هذا الشاب فقال لي يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل فانه ما رأيت عيناي مثله . وهذه القصة وأشباهها تدل على لقاء أحمد بن حنبل للشافعي بمكة ، ولكن هل كان هذا أول لقاء ؟ لا تدل القصة على ذلك .

يعرف مكانها من علم الشريعة ، ومعرفة صحيحها وسقيمها ، وطرق الاستدلال بها ، ومقامها من القرآن الكريم ، ثم كيف يستخرج الأحكام إذا لم يكن كتاب ولا سنة . وما ضوابط الاجتهاد في هذا المقام ، وما الحدود التي ترسم للمجتهد فلا يعدوها ليأمن من شطط الاجتهاد . لأجل هذا طال مقامه ، وقد عهدناه صاحب سفر فهو لا بد في هذه الأثناء قد انتهى إلى وضع أصول الاستنباط وخرج بها على الناس ، ولعله عندما انتهى إلى قدر يصح لإخراجه وعرضه للجمهرة من الفقهاء ، سافر إلى بغداد عش الفقهاء جميعاً ، إذ ضؤل أمر المدينة بعد وفاة مالك رضى الله عنه ، وبعد أن صار ببغداد أهل الرأى وأهل الحديث معاً .

١٨ - قدم الشافعى ببغداد للمرة الثانية فى سنة ١٩٥ ، وقد قدم وله طريقة فى الفقه لم يسبق بها . وجاء وهو لا ينظر إلى الفروع يفصل أحكامها وإلى المسائل الجزئية يفتى فيها فقط ، بل جاء وهو يحمل فى عيبته قواعد كلية ، أصل أصولها ، وضبط بها المسائل الجزئية . فقد جاء إذن بالفقه علماً كلياً ، لا فروعاً جزئية ، وقواعد عامة ، لا فتوى وأفضية خاصة ، رأت فيه ببغداد ذلك ، فانثال عليه العلماء والمتفقون ، وطلبه المحدثون ، وأهل الرأى جميعاً . وفى هذه المقدمة ذكروا أنه ألفت لأول مرة من كتاب الرسالة الذى وضع به الأساس لعلم أصول الفقه . وجاء فى مناقب الشافعى ، للرازى أنه : روى أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعى ، وهو شاب ، أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبين النسخ والمنسوخ ، ومراتب العموم والخصوص فوضع الشافعى رضى الله عنه كتاب الرسالة وبعثها إليه ، فلما قرأها عبد الرحمن ابن مهدي قال : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ، ثم يقول الرازى : واعلم أن الشافعى رضى الله عنه قد صنف كتاب الرسالة وهو ببغداد ، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، وفى كل واحد منهما علم كثير .

وعلى هذا السياق يكون الشافعي قد كتب الرسالة، وهو في بغداد، ومثل ذلك جاء في تاريخ بغداد، ولكن جاء في صدر ما نقلناه عن الرازي أنه ذكر أن الشافعي كان شاباً عندما التمس ابن مهدي منه، وهو في هذه القدمة كان كهلاً، إذ تجاوز الخامسة والأربعين، إلا إذا اعتبرنا من في هذه السن شاباً، وكذلك كان يعبر بعض الناس، ويحتمل أنه ألف الرسالة بطلب ابن مهدي وهو بمكة، وأرسلها إليه وهو بالعراق فنشرت به.

أخذ الشافعي ينشر بالعراق تلك الطريقة الجديدة التي استنها، ويجادل على أساسها، وينقد مسائل العلم على أصولها، ويؤلف الكتب، وينشر الرسائل، ويتخرج عليه رجال الفقه، ومكث في هذه القدمة سنتين، ثم عاد بعد ذلك إليها سنة ١٩٨ هـ وأقام أشهراً فيها، ثم اعتزم السفر إلى مصر، فرحل إليها، وقد وصل سنة ١٩٩ هـ.

١٩ - ولماذا قصر الإقامة في بغداد هذه القدمة الأخيرة، ولم يقم بها طويلاً، وهي عش العلماء، وقد صار له بها تلاميذ ومريدون، والعلم ينتشر بين ربوعها، فيشع، في كل الآفاق، ولم يكن لمصر في ذلك الإبان مكانة علمية كمكانة بغداد أو تقاربها؟ سؤال يضطرب في النفوس، ولعل الجواب عنه أنه في سنة ١٩٨ كانت الخلافة لعبد الله المأمون، وفي عهد المأمون ساد أمران لم تدل حياة الشافعي ومنهجه العلمي على أنه يستطيع الإقامة في ظلهما:

أحدهما: أن الغلبة في عهد المأمون صارت للعنصر الفارسي، إذ أن المعركة التي قامت بين الأمين والمأمون كانت في الواقع بين معسكر العرب الذي يمثله الأمين وقواده، ومعسكر الفرس الذي كان قواده وجنده من الفرس، وانتهت المعركة بغلبة الفرس، وصار لهم بعد ذلك النفوذ والغلب، وما كان لهذا القرشي أن يرضى بالمقام في ظل سلطان فارسي في نفوذه وصيغته.

ثانيهما: أن المأمون كان من الفلاسفة المتكلمين فأدنى إليه المعتزلة،

وجعل منهم كتابه وحجابه وجلساءه ، والمقربين إليه الأدين ، والمحكين في العلم وأهله ، والشافعي ينفر من المعتزلة ومناهج بحشم ، ويفرض عقوبة على بعض من يخوض مثل خوضهم ، ويتكلم في العقائد على طريقتهم ، فما كان لمثل الشافعي أن يرضى بالمقام معهم ، وتحت ظل الخليفة الذي مكن لهم ، حتى أداه الأمر بعد ذلك إلى أن أنزل بالفقهاء والمحدثين المحنة التي تسمى في التاريخ الإسلامي محنة «خلق القرآن» . ولقد يروى أن المأمون عرض على الشافعي أن يوليه القضاء ، فاعتذر ، وهذا يتفق مع منطق تفكيره ، ومع سلسلة حياته التي علمناها من قبل .

لم يطب للشافعي المقام ببغداد ، وكان لابد من الرحيل منها ، ولم يجد مهاجراً وسعة إلا في مصر ، ذلك أن واليها قرشي هاشمي عباسي . قال ياقوت في معجمه : وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله ابن العباس بن موسى بن عبد الله بن عباس دعاه . وكان العباس هذا خليفة لعبد الله المأمون على مصر .

ولقد قال الشافعي عندما أراد السفر إلى مصر :

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة والقفز
فوالله ما أدرى الفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر

تساءل الشافعي في هذا الشعر أساق إلى الغنى والفوز في مصر أم يساق إلى القبر ، ولقد أجابه القدر عن سؤاله فساقه إليهما معاً ، فقد نال الغنى بما كان يأخذه من سهم ذوى القربى الذي قد ناله بنسبه الشريف ، ونال الفوز بنشر علمه وآرائه ، وفقهه ، ثم ناله الموت ، فكان مسوقاً إلى قبره بمصر ، فقد مات في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ هـ وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً .

٢٠ - وقبل أن نختم الكلام في حياة الشافعي ، لابد من الإشارة إلى أمر علمي له صلة بحياته وتاريخه ، ذلك أن الشافعي بعد قدومه إلى بغداد سنة ١٩٥ ، بل قبل ذلك في دواسته بمكة - كان صاحب طريقة جديدة في الفقه ، وصاحب آراء جديدة فيه تنفصل عن آراء مالك ، ولكنه لم يتجه

إلى آراء مالك بنقد أو تزيف ، بل كان يلقي بآرائه ، خالفت أو وافقت رأى مالك من غير نقد له ، ولذلك كان يعد من أصحاب مالك ، وإن كان في جملة آرائه ما يخالفه قليلا أو كثيراً ، كما خالف بعض أصحاب مالكا ، وكما خالف أصحاب أبي حنيفة شيخهم ، ولكن حدث ما اضطر الشافعي إلى أن يتجه لآراء شيخه بالنقد والتزيف ، ذلك أنه بلغه أن مالكا تقدر آثاره وثيابه في بعض البلاد الإسلامية ، وأن من المسلمين ناساً يتحدث إليهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعارضون الحديث بقول مالك ، عندئذ ثور نفس الشافعي ، لأنه يرى أن الناس عدوا بمالك مرتبة الجهد الذي يلتمس من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الناس مقدمون على أمر خطير ، إذ يعارضون بأحاديث الرسول أقوال ناس يصيبون ويخطئون ، وما كان لأحد مع الحديث رأى ، لذلك يتقدم الشافعي الذي لقبه العلماء في عصره بناصر الحديث لنصرة الحديث ، ويجد الطريق معيناً ليسلكه ، وهو أن ينقد آراء مالك ، ويعلم الزيف منها ، ليعلم الناس أن مالكا بشر يخطئ ويصيب ، وأنه لا رأى له مع الحديث ، ويؤلف في ذلك كتاباً سماه « خلاف مالك » ، ولكنه يتردد في إعلانه وفاء لمالك شيخه وأستاذه ، والذي كان يقول عنه طول حياته إنه الأستاذ ، يتردد بين إرشاد الناس لما رآه أخطاء لمالك ، وهو يخشى على السنة من تقدسه ، وبين الوفاء لمالك ، فيطوى الكتاب سنة ، وهو متردد ، ثم يستخيره بالله فينشره .

يروى في هذا المقام الفخر الرازي : أن الشافعي إنما وضع الكتاب على مالك ، لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستقى بها ، وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قول مالك ، فقال الشافعي ، إن مالكا آدمى قد يخطئ ويغلط ، فصار ذلك داعياً الشافعي إلى وضع الكتاب على مالك ، وكان يقول كرهت أن أفعل ذلك ، ولكني استخرت الله تعالى فيه سنة . وقال الربيع سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : قدمت مصر ولا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثاً ،

فظرت فإذا هو يقول بالأصل ، ويدع الفرع ، ويقول بالفرع .
ويدع الأصل .

ثم يرر الفخر الرازي نقد الشافعي لأستاذه مالك بما كان من نقد
أرسطو لأفلاطون فيقول : وأقول إن أرسططاليس الحكيم تعلم الحكمة من
أفلاطون ، ثم خالفه ، فقيل له كيف فعلت ذلك ، فقال أستاذي صديقي ،
والحق صديقي ، فإذا تنازعا ، فالحق أولى بالصدقة . فهذا المعنى بعينه هو
الذي حمل الشافعي رضي الله عنه على إظهار مخالفة مالك .

٢١ - أظهر الشافعي خلاف مالك ، وما فعل ذلك إلا لله ، وكان
عزيراً عليه أن ينقد مالكا لأنه أستاذه ، وما كان يعبر عنه إلا بالأستاذ ،
وقد جر عليه متاعب ومصاعب ، فإن مالكا كان بمصر له المكان الأول
بين المجتهدين ، فثار على الشافعي المالكيون ينقدونه ويجرحونه ويطعنون
عليه ، حتى لقد ذهب جمهورهم إلى الوالي يطلبون إخراجهم ، ويقول في ذلك
الرازي : لما وضع الشافعي كتابه على مالك ذهب أصحاب مالك إلى السلطان
والتسوا منه لإخراج الشافعي . ولم ينقد الشافعي آراء مالك فقط ، بل من
قبل آراء العراقيين أبي حنيفة وأصحابه وغيرهم من فقهاء العراق ، وذكر
خلافهم وزيف بعض آراء لهم ، وذكر خلاف الأوزاعي ، ونقد آراءه
في السير (١) ، ولكل هؤلاء أنصار من رجال الفقه في عهده ، يتعصبون
لهم ، وينافحون عنهم ، فينقدهم انبثق على الشافعي البثق الكبير من الجدل
والمناظرة ، فكان يجادل ويصاول . ويضع بجدله ومناظراته ما ينبغي
أن يكون عليه المجادل يستمسك بالحجة وحدها من غير أن يمس صاحب
الرأي بسوء ، حتى لقد كان بخلافه صاحب فلسفة فقهية خاصة . ولقد قال
فيه أحمد بن حنبل : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : في اللغة ، واختلاف
الناس ، والمعاني ، والفقه .

كان يميل في جداله دائماً إلى نصره الحديث ، ورجال الحديث مع علمه

(١) في المجموعة الفقهية للشافعي التي طبعها المرحوم الحسيني (بك)
هذه الكتب كلها .

بالجدل وأساليبه ، وقد بهت أهل الرأي في أول التقائه بهم في بغداد سنة ١٨٤ . ويقول الرازي في ذلك : الناس كانوا قبل زمان الشافعي فريقين ، أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي ، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما أورده عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالا أو إشكالا سقطوا في أيديهم عاجزين متحيرين ، وأما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل ، إلا أنهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن ، وأما الشافعي رضى الله عنه ، فكان عارفاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم محيطاً بقوانينها ، وكان عارفاً بآداب النظر والجدل قوياً فيه ، وكان فصيح الكلام ، قادراً على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة ، وآخذاً في نصره أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من أورد عليه سؤالا أو إشكالا أجاب عنه بأجوبة شافية كافية ، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أصحاب الحديث .

ولما أصل الأصول ووضع القواعد ، وجد أن بعض الفقهاء من أهل الحجاز يخرج على هذه الأصول ، ولا يتقيد بها ، ومنهم شيخه ، فوجده يأخذ بالأصل ، ويترك الفرع ، ويأخذ الفرع ، ويترك الأصل ، فجادل أهل الحجاز أيضاً ، وبذلك قضى حياته كلها في نضال لأجل فقه هذه الشريعة ، وفي سبيلها ولأجل الحق ، وفي سبيل الحق ، حتى لقد زعم بعض المؤرخين أنه مات في سبيل ذلك (١) « فكان بحق إمام الشريعة في عصره .

(١) جاء في معجم ياقوت : (كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس يقال له فتيان فيه حدة وطيش وكان يناظر الشافعي كثيرا ، ويجتمع الناس عليهما فتناظر يوما في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون اذا اعتقه الراهن ، ولا مال له غيره فأجاب الشافعي ، بجواز بيعه على أحد أقواله ، ومنع فتيان منه ، لانه يمضى عنقه بكل وجه ، وهو أحد أقوال الشافعي ، فظهر عليه الشافعي في الحجاج ، فضاقت فتیان لذلك ذرعا ، فشتم الشافعي شتما قبيحا ، فلم يرد عليه الشافعي حرفا ، ومضى في كلامه في المسألة ، فرفع ذلك رافع الى السرى (الوالى) فدعا الشافعي ، وسأله عن ذلك ، وعزم عليه فأخبره بما جرى ، وشهد الشهود على فتیان بذلك ، فقال السرى : لو شهد آخر مثل الشافعي على فتیان لضربت عنقه ، وأمر بفتیان فضرب بالسياط وطيف به على جمل وبين =